علم الحياة الاجتماعي

SOCIAL BIOLOGY

احتفلت مدرسة العلوم الاقتصادية بلندن في ٢٣ اكتوبر الماضي بتنصيب الاستاذ لانسلوت هوغبن في كرسي « علم الحياة الاجتماعي » الجديد واختارت المستر ولز الكاتب الانكليزي المشهور لافتتاح الاحتفال فأحسنت الاختيار لما عُرف عنهُ من شدة عنايته بتوجيه الانظار الى وجوب السعي للجري على أساليب علوم الحياة في درس الاجتماع . فرحّب في خطبته بهذه التجربة التي ترمي الى الجمع بين علمي الحياة والاجتماع وعدَّها نذير انقلاب خطير في وجهة العلوم الاجتماعية والاقتصادية وتغيراً في اساليبها . ولم يرفق في اثناء خطبته بالاساليب القديمة السائدة في هذه العلوم . فقال إنهُ رغم ادعاء اصحابها بأنها « علوم » تبدأ بنظريات وحدود مأخوذة من اساليب القرون الوسطى . ولو لم يذكر ولز في خطبته ان هذا الانقلاب سيحدث ثورة في الفكر لما كانت الخطبة متسقة مع ما هو معروف عنهُ من حب التجديد والتطور . فقد اتسع نطاق البيولوجيا في ربع القرن الاخير اتساعاً سريعاً وخصوصاً ما كان منها خاصاً بالانسان . وهذه المعارف الجديدة اذا طبقت على الاجتماع والاقتصاد اقتربت بهما من منطقة المعالجة العلمية . ثم حدَّد ميدان بحث الاستاذ هوغبن بقوله انهُ علم توازن النوع الانساني وأحواله ودرس وجوه التغير التي تطرأ عليه تحت ضغط الاحوال المتقلبة . ثم وقف الاستاذ هوغبن وألقى خطبتهُ التي لخصتها نايتشر فيما يلي :

كان كتاب داروين في « تسلسل الانسان » تحدياً للنظر الثنائي الذي اذن لعلم النفس والفلسفة المدرسية في اتباع طريقين منفصلين احدهما عن الآخر من الزمان القديم الى منتصف القرن الخامس عشر . ومن الظاهر ان العلوم الاجتماعية لا تستطيع ان ترتقي بعد الآن ضمن نظام من التقاليد الفلسفية التي نشأت في دويلات اليونان الصغيرة وتغذت من ابيلار الى كانت بعلم الكلام

فالعلوم الاقتصادية قد قطعت صلتها بالفلسفة الادبية . وقد أخذ هذا الميل يزداد ظهوراً في سائر العلوم الاجتماعية . فتطبيق الاسلوب العلمي في درس الاجتماع البشري مضمون من الوجهة الفلسفية لان كل الباحثين يجمعون على ان الناس من اصحاب الملايين كانوا او من

علماء وراء الطبيعة او من رجال السياسة او عمال المناجم هم نتاج عوامل زمنية تفعل فيهم فعلها في تكوين سائر الخلائق الحية . والنتائج الخطيرة في نظرنا التي اسفر عنها نشر كتاب داروين المذكور آخذة في الظهور في هذا الزمن لان علماء الحياة قد اخذوا على عاتقهم تحليل عناصر السلوك الحيواني ورجال المدرسة السلكية في علم النفس آخذون في تطبيق هذه المبادئ على الانسان

الانسان حيوان كما ان النملة حيوان . فالعالم البيولوجي اذ ينظر فيه كبيولوجي فقط يقصر نظره على تلك المميزات الحيوية التي تشترك فيها النملة والانسان. اما العالم الاجتماعي فيحصر نظره في تلك الصفات والعلاقات التي تميز الرجال والنساء عن النمال وغير النمال من الحيوانات . وميدان العالمين (البيولوجي والاجتماعي) يشتركان في محاولتهما تبيين صفات الاجتماع البشري التي تبعثها تلك الخواص البشرية المشتركة بين الناس والحيوانات . كما يشتركان في رغبتهما في الكشف عن اي المميزات في الاجتماع البشري تعود الى صفات يختلف بها الانسان كنوع من انواع الحيوان عن الانواع الاخرى

ويجب ان نسلم بان المسائل التي اتجهت اليها عناية رجال كهكسلي وغلتن وسبنسر قد فقدت جدتها . ان مقاومة الكنيسة غير المقترنة بالحكمة لمذهب داروين حمل علماء البيولوجيا في عصره على حصر عنايتهم في ذكر الصفات التي يشترك فيها الانسان والحيوان . فعلم الحياة الاجتماعي يجب ان يأخذ على عاتقه الآن تحديد الصفات التي يمتاز بها الانسان كنوع حيواني على غيره من الانواع . وهذا التحديد يجب ان يكون بيولوجيًا. ان مباحث علماء الفسيولوجيا امثال شرنتن وبافلوف قد مهدت لنا طريقاً لتفسير هذه الصفات البشرية المميزة تفسيراً بيولوجيًا. ونحن لا نستطيع ان نحصل بعد الآن على رأي متزن في الوراثة والتقاليد الاجتماعية وما لهما من الاثر في تبيين الامور التي تمتاز بها الجماعات البشرية بعضها من بعض الا اذا اصبح الدرس البيولوجي لسلوك الانسان متسقاً مع الطرائق التي يجري عليها العالم في بحث الوراثة والتسلسل

والخطر الكبير الذي يتحتم علينا محاذرة الوقوع فيه هو التسرُّع في استنتاج النتائج عن هذه المباحث وجعلها اساساً للتشريع المدني . ان الاساس الوراثي في تقسيم الناس الى شعوب وطبقات مشكلة تحتاج الى كثير من الحذر والتجرد وضبط النفس . وما من عالم يشط بالنفس عن هذه الصفات الجيدة مثل اقحام المسائل التي لا تزال في دور البحث والاستجلاء في معمعة الجدل السياسي . ان جانباً كبيراً من المباحث الموجهة لبيان التحولات التناسلية في الجماعات البشرية لم تصب المرمى لأن القائمين بها لم يدركوا مبلغ هذه المباحث

من التعقيد . فحاجتنا الاولى انما هي الى البحث لا الى البروبغندة . والتبعة الاولى الملقاة على عاتق البيولوجي الاجتماعي ليست الدعاية لتعقيم الذين لا يصلحون للتناسل بل العناية بتعقيم ادوات البحث قبل استعمالها في معالجة جسم المجتمع .

ان مسألة « السكان » في جيلنا هذا تشتمل على فروع متنوعة تهم الاجتماعي والبيولوجي على السواء . ففهم المسائل البيولوجية فهماً صحيحاً يقتضي القيام بمباحث علمية في فسيولوجية التناسل ، واساس السلوك التناسلي ، ونسبة الخصب التناسلي في مختلف طبقات المجتمع . فالوقوف موقف المذعور المتوجس من هذا البحث لا يسهل مهمة العالم وهو يحاول تحليل هذه المشكلة المعقدة . وعلى الباحث المشكك ان يقترب من مسألة اختلاف الخصب التناسلي في طبقات المجتمع التي تحت هبوط متوسط المواليد ، اقترابهُ من احجية تتحل لا كارثة للندب والرثاء . وليس لدينا من الادلة العلمية ما يؤيد القول الشائع بأن هناك فروقاً كبيرة في الخصب التناسلي بين الطبقات الاجتماعية . ولو كانت لدينا هذه الادلة لوجب أن تنظر في كيفية انتقالها من جيل الى جيل قبل الحكم بأن وجودها يسفر عن نتائج اجتماعية خطيرة في المستقبل . اما الاحصاءات التي جمعتها حكومتا المانيا واسوج فتشير الى ان وسائل منع الحمل آخذة في الانتشار بين طبقات الامتين المختلفة وعليه فالمحتمل أن الخوف من طغيان مواليد الطبقات السفلى في المجتمع سيُمحَل من هذا الطريق بدلاً من الالتجاء الى التشريع . ولكن اذا صحَّ هذا التوقع فقد تواجه الجماعات الاوربية تضاعفها في عدد سكانها وهذا بدوره يخلق طائفة كبيرة من المشكلات الاجتماعية الجديدة لا بدَّ من معالجتها بالتشريع للوقاية منها . والنقص في عدد المواليد يحمل علماء الاجتماع والبيولوجيا على مشاطرة الاستاذ هولدين (J. B. S.) رأيهُ في اننا على عتبة عصر الابداع البيولوجي . وعندي ان تخصيص منصب استاذ لموضوع « البيولوجيا الاجتماعية » هو اعتراف ضمني بهذا الانقلاب

ولا مندوحة للبيولوجي الاجتماعي عن ان يتصل من جهةٍ بعلم الاجتماع المحض في كثير من فروع مباحثهِ لتحقيق العوامل التي تعين نماء الجماعات الانسانية . ومن جهة اخرى لا يستطيع علم البيولوجيا الاجتماعية ان ينمو نمواً صحيحاً اذا ظلَّ بمعزل عن طرائق البحث العلمي التجريبي . فان تعقُّد المسألة التاسلية وتشعبها تحتم على علم البيولوجيا الاجتماعية ان يخلق طريقة للبحث البيولوجي والتعليم البيولوجي تمهد السبيل لنوع جديد من علم النفس الاجتماعي . ولسبب عينهِ لا مندوحة عن اتباع طريقة التحليل التجريبي في فسيولوجية التناسل التي اهملها العلم الطبي زماناً طويلاً